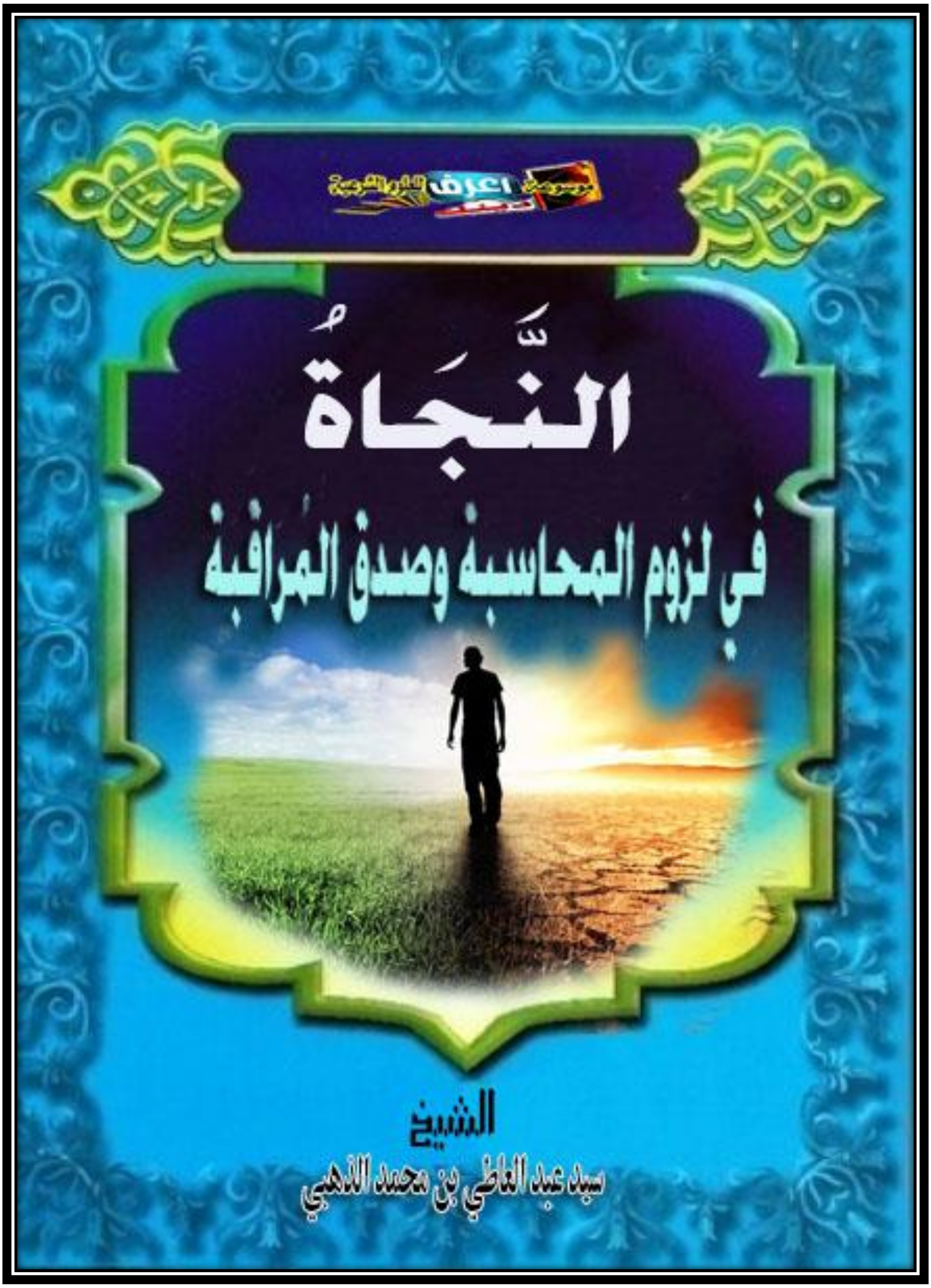

النَّجَاةُ
في لزوم المحاسبة وصدق المُراقبة
الشيخ
سيد عبد العاطي بن محمد الذهبي

بسم الله الرحمن الرحيم

النَّجَاةُ

في لزوم المحاسبة وصدق المُراقبة

الشيخ

سيد عبد العاطي بن محمد الذهبي





الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أعَزَّنَا بِالإِسْلَامِ، وَجَعَلَنَا إنْ تَمَسَّكْنَا بِهِ خَيْرَ أمَّةٍ أخْرِجَتْ للنَّاسِ، وَأشْهَدُ أنْ لَّا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَأمَرَهُمْ بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ بِرِسَالَتِهِ،فَبَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَتَرَكَنَا عَلَى الْبَيْضَاء لَا يَزِيغُ عَنْهَا إلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأصْحَابِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِسُنَّتِهِ، وَسَارُوا عَلَى نَهْجِهِ، وَجَاهَدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

•أمَّا بَعْد:

•فاعْلَمْ يَا طَالِبَ النَّجَاةِ–رَحِمَنِي اللَّهُ وَإيَّاكَ–أنَّ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ وَظِيفَةُ الْعُمْرِ الَّتِي لَا يَنْبَغِي أنْ تُفَارِقَ مَنْ أرَادَ النَّجَاةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ،وَمَعَ كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أنْفَاسِهِ،دُنَ تَخْصِيصٍ لِبِدَايَةِ عَامٍ أوْ نِهَايَتِهِ،أوْ لِبِدَايَةِ شَهْرٍ أوْ نِهَايَتِهِ فَهَذَا مِمَّا لَا أصْلَ لَهُ فِي الإِسْلَامِ،مِنْ أجْلِ ذَلِكَ صَنَّفْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمُخْتَصَرَةَ وَعَنْوَنْتُ لَهَا بِهَذَا الْعُنْوَانِ{النَّجَاة فِي لُزُومِ الْمُحَاسَبَةِ وَصِدْقِ الْمُرَاقَبَةِ}

،فِيهَا بَيَانٌ لأهَمِّيَّةِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ،لأنَّ الْإِيمَانَ قَائِدٌ، وَالْعَمَلَ سَائِقٌ، وَالنَّفْسَ حَرُونٌ–تُخَالِفُ بِإِصْرَارٍ وَلَا تَنْقَادُ–، فَإِنْ فَتَرَ السَّائِقُ ضَلَّتْ عَنِ الطَّرِيقِ، وَإِنْ فَتَرَ الْقَائِدُ حَرَنَتْ وَاسْتَعْصَتْ، فَإِذَا اجْتَمَعَا اسْتَقَامَتْ، وَالنَّفْسُ إِذَا أُطْمِعَتْ طَمِعَتْ، وَإِذَا فُوِّضَ الْأَمْرُ إِلَيْهَا أَسَاءَتْ، وَإِذَا حُمِلَتْ عَلَى أَمْرِ اللهِ حَمْلاً صَلَحَتْ،لِذَا وَجَبَتْ مُحَاسَبَتُهَا فِي كُلِّ حِينٍ.
وَلأهَمِّيَةِ هَذَا الْمَوْضُوعِ لَابُدَّ مِنْ تَمْهِيدٍ فَأقُولُ مُمَهِّدًا:

•إنَّ الْمُتَدَبِّرَ لآيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُّ أنَّ النُّفُوسَ عَلَى مَائدَةِ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ هِيَ:النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ،وَالنَّفْسُ اللَّوَّامَةُ،وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ وَإلَيْكَ الْبَيَانُ:



(١)النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ:

-قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ}.(يوسف:٥٣).

-فَعِنْدَمَا اعْتَرَفَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ بِأنَّ يُوسُفَ مِنَ الصَّادِقِينَ،وَأنَّهَا لَمْ تَخُنْهُ بِالْغَيْبِ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهَا:{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}.(يوسف:٥٠-٥٢).

-فَلَمَّا كَانَ فِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهَا، وَأنَّهُ لَمْ يَجْرِ مِنْهَا ذَنْبٌ فِي شَأنِ يُوسُفَ،اسْتَدْرَكَتْ فَقَالَتْ:{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} أيْ: مِنَ الْمُرَاوَدَةِ وَالْهَمِّ، وَالْحِرْصِ الشَّدِيدِ، وَالْكَيْدِ فِي ذَلِكَ.{إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} أيْ: لَكَثِيرَةُ الْأمْرِ لِصَاحِبِهَا بِالسُّوءِ، أيْ: الْفَاحِشَةَ، وَسَائر الذُّنُوبِ، فَإِنَّهَا مَرْكَبُ الشَّيْطَانِ، وَمِنْهَا يَدْخُلُ عَلَى الْإنْسَانِ { إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي } فَنَجَّاهُ مِنْ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةِ، حَتَّى صَارَتْ نَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةً إِلَى رَبِّهَا، مُنْقَادَةً لِدَاعِي الْهُدَى، مُتَعَاصِيَةً عَنْ دَاعِي الرَّدَى، فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ النَّفْسِ، بَلْ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ بِعَبْدِهِ.

{ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } أيْ: هُوَ غَفُورٌ لِمَنْ تَجرَّأَ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، إِذَا تَابَ وَأَنَابَ، { رَحِيمٌ } بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ، وَتَوْفِيقِهِ للأعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، لَا مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي كَلَامِهَا، وَيُوسُفُ إِذْ ذَاكَ فِي السِّجْنِ لَمْ يَحْضُرْ.

•فَالنَّفسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ صَاحِبَهَا بِالسَّيِّئَاتِ وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْمُحَرَّمَاتِ، وَهِيَ نَفْسٌ غَابَتْ عِنهَا رِقَابَةُ اللهِ وَالْخَوْفُ مِنْهُ فَاسْتَشْرَى صَاحِبُهَا فِي الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ،وَالنُّفُوسُ مَائِلَةٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ لأنَّ كُلَّ نَفْسٍ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا نَفْسًا رَحِمَهَا اللهُ بِالْعِصْمَةِ.



(٢)النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ:

–قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ}.(القيامة:٢).

–قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي تَفْسِيرِهَا:{ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } وَهِيَ جَمِيعُ النُّفُوسِ الْخَيِّرَةِ وَالْفَاجِرَةِ، سُمِّيَتْ { لَوَّامَة } لِكَثْرَةِ تَرَدُّدِهَا وَتَلَوُّمِهَا وَعَدَمِ ثُبُوتِهَا عَلَى حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهَا، وَلأَنَّهَا عِنْدَ الْمَوْتِ تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى مَا عَمِلَتْ ، بَلْ نَفْسُ الْمُؤمِنِ تَلُومُ صَاحِبَهَا فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا حَصَلَ مِنْهُ، مِنْ تَفْرِيطٍ أَوْ تَقْصِيرٍ فِي حَقٍّ مِنَ الْحُقُوقِ، أَوْ غَفْلَةٍ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْإِقْسَامِ بِالْجَزَاءِ، وَعَلَى الْجَزَاءِ، وَبَيْنَ مُسْتَحِقِّ الْجَزَاءِ.

•فَالنَّفْسُ اللَّوَّامَةُ اخْتُلِفَ فِيهَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هِيَ الَّتِي لَا تَثْبُتُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ؛ أَخَذُوا اللَّفْظَةَ مِنَ التَّلَوُّمِ، وَهُوَ التَّرَدُّدُ، فَهِيَ كَثِيرَةُ التَّقَلُّبِ وَالتَّلَوُّنِ،وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ اللهِ، فَإِنَّهَا مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَتَقَلَّبُ، وَتَتَلَوَّنُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ –فَضْلًا عَنِ الْيَوْمِ وَالشَّهْرِ وَالْعَامِ وَالْعُمُرِ– أَلْوَانًا عَدِيدَةً؛ فَتَذْكُرُ وَتَغْفَلُ ، وَتُقْبِلُ وَتُعْرِضُ ، وَتَلْطُفُ وَتَكْثُفُ، وَتُنِيبُ

وَتَجْفُو، وَتُحِبُّ وَتُبْغِضُ، وَتَفْرَحُ وَتَحْزَنُ، وَتَرْضَى وَتَغْضَبُ، وَتُطِيعُ وَتَعْصِي، وَتَتَّقِي وَتَفْجُرُ، إِلَى أَضْعَافِ أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِهَا وَتَلَوُّنِهَا، فَهِيَ تَتَلَوَّنُ كُلَّ وَقْتٍ أَلْوَانًا كَثِيرَةً، فَهَذَا قَوْلٌ.

–وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: اللَّفْظَةُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ اللَّوْمِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–: {إِنَّ الْمُؤمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ دَائِمًا، يَقُولُ: مَا أَرَدْتِ بِهَذَا؟ لِمَ فَعَلْتِ هَذَا؟ كَانَ غَيْرُ هَذَا أَوْلَى، أَوْ نَحْو هَذَا مِنَ الْكَلَامِ}.

–وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ نَفْسُ الْمُؤمِنِ تُوقِعُهُ فِي الذَّنْبِ، ثُمَّ تَلُومُهُ عَلَيْهِ، فَهَذَا اللَّوْمُ مِنَ الْإِيمَانِ، بِخِلَافِ الشَّقِيِّ، فَإِنَّهُ لَا يَلُومُ نَفْسَهُ عَلَى ذَنْبٍ، بَلْ يَلُومُهَا وَتَلُومُهُ عَلَى فَوَاتِهِ.

–وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ هَذَا اللَّوْمُ للنَّوْعَيْنِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَلُومُ نَفْسَهُ، بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا، فَالسَّعِيدُ يَلُومُهَا عَلَى ارْتِكَابِ مَعْصِيَةِ اللهِ وَتَرْكِ طَاعَتِهِ، وَالشَّقِيُّ لَا يَلُومُهَا إِلَّا عَلَى فَوَاتِ حَظِّهَا وَهَوَاهَا.

–وَقَالَتْ فِرْقَةٌ أُخْرَى: هَذَا اللَّوْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَلُومُ نَفْسَهُ، إِنْ كَانَ مُسِيئًا عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا عَلَى تَقْصِيرِهِ.

–وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا حَقٌّ وَلَا تَنَافِي بَيْنَهَا، فَإِنَّ النَّفْسَ مَوْصُوفَةٌ بِهَذَا كُلِّهِ، وَبِاعْتِبَارِهِ سُمِّيَتْ لَوَّامَةً. لَكِنَّ النَّفْسَ نَوْعَانِ:

– لَوَّامَةٌ مَلُومَةٌ: وَهِيَ النَّفْسُ الْجَاهِلَةُ الظَّالِمَةُ، الَّتِي يَلُومُهَا اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ.

–وَلَوَّامَةٌ غَيْرُ مَلُومَةٍ: وَهِيَ الَّتِي لَا تَزَالُ تَلُومُ صَاحِبَهَا عَلَى تَقْصِيرِهِ فِي طَاعَةِ اللهِ مَعَ بَذْلِهِ جُهْدِهِ، فَهَذِهِ غَيْرُ مَلُومَةٍ.



(٣)النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ:

–قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ}.(الفجر:٢٨).–وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ : هِيَ النَّفْسُ الْآمِنَةُ مِنَ الْخَوْفِ أوِ الْحُزْنِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ . بِسَبَبِ إيمَانِهَا الصَّادِقِ ، وَعَمَلِهَا الصَّالِحِ ، وَالْكَلَامُ عَلَى إرَادَةِ الْقَوْلِ . أيْ : يَقُولُ اللهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ مَلَائِكَتِهِ،إكْرَامًا للمُؤمِنينَ ، عِنْدَ وَفَاتِهِمْ ، أوْ عِنْدَ تَمَامِ حِسَابِهِمْ : يَأيَّتُهَا النَّفْسُ الْآمِنَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، النَّاعِمَةُ بِرُوحِ الْيَقِينِ ،الْوَاثِقَةُ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ.

•فَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ هِيَ الرَّاضِيَةُ بِقَضَاءِ اللهِ ، الَّتِي عَلِمَتْ أنَّ مَا أخْطَأهَا لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهَا،وَأنَّ مَا أصَابَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهَا،

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمُطْمَئِنَّةُ ؛ لأنَّهَا بُشِّرَتْ بِالْجَنَّةِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَعِنْدَ الْبَعْثِ ، وَيَوْمَ الْجَمْعِ

•وَبَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ بِبَيَانِ أنْوَاعِ النُّفُوسِ حَانَ أوَانُ الشُّرُوعِ فِي الْمَقْصُودِ فَأقُولُ وَباللَّهِ التَّوْفِيقُ:

•أوَّلًا:مَفْهُومُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ:

–مُحَاسَبَةُ النّفْسِ تَعْنِي تَصْفِيَتَهَا وَتَنْقِيَتَهَا لِتَلْقَى اللهَ خَالِيَةً مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ تَخْصِيصِ وَقْتٍ يَوْمِيِّ يَخْتَلِي فِيهِ لِيُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَمَّا بَدَرَ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ أعْمَالٍ، فَإنْ كَانَتْ أعْمَالًا صَالِحَةً تَابَعَهَا وَأكْثَرَ مِنْهَا فِي الْأيَّامِ الْقَادِمَةِ، وَإنْ كَانَتْ أعْمَالًا سَيِّئَةً وَهَدْرًا للأوْقَاتِ وَبَّخَهَا عَلَيْهَا وَتَابَ إلَى اللهِ وَاسْتَغْفَرَ وَعَاهَدَهُ ألَّا يَرْجِعَ إلَيْهَا ثَانِيَةً؛ لأنَّ إهْمَالَ مُتَابَعَتِهَا سَيُؤدِّي إلَى تَمَادِي النَّفْسِ فِي الْآثَامِ.

-قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي "أَدَب الدُّنْيَا وَالدِّين"

ص:٣٤٢ فِي مَعْنَى الْمُحَاسَبَةِ :{أَنْ يَتَصَفَّحَ الْإِنْسَانُ فِي لَيْلِهِ مَا صَدَرَ مِنْ أَفْعَالِ نَهَارِهِ، فَإِنْ كَانَ مَحْمُودًا أَمْضَاهُ ، وَأَتْبَعَهُ بِمَا شَاكَلَهُ وَضَاهَاهُ ، وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا اسْتَدْرَكَهُ إِنْ أَمْكَنَ وَانْتَهَى عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ}.

-وَقَالَ عَنْهَا الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّم-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي "مَدَارِجِ السَّالِكِينَ"ج ١ ص:١٦٩ هِيَ :{التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا لَهُ وَعَلَيْهِ فَيَسْتَصْحِب مَا لَهُ وَيُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ ، لأَنَّهُ مُسَافِرٌ سَفَرَ مَنْ لَا يَعُودُ} .



•ثَانِيًا:مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ فِي الْقُرْآنِ:

-وَرَدَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى مَائدَةِ الْقُرْآنِ فِي فَضْلِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ أَذْكُرُ مِنْهَا:

(١)قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ}.(المائدة:١٠٥).

-قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي تَفْسِيرِهَا: يَقُولُ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ } أَيْ: اجْتَهِدُوا فِي إِصْلَاحِهَا وَكَمَالِهَا وَإِلْزَامِهَا سُلُوك الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم، فَإِنَّكُمْ إِذَا صَلَحْتُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم، وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيم، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ. وَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ،لَا يَضُرُّ الْعَبْدَ تَرْكُهُمَا وَإِهْمَالُهُمَا

،فَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ هُدَاهُ،إِلَّا بِالْإِتْيَانِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. نَعَمْ، إِذَا كَانَ عَاجِزًا عَنْ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ ضَلَالُ غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُ: { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا } أَيْ: مَآلُكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاجْتِمَاعُكُمْ بَيْنَ يَدَي اللهِ تَعَالَى. { فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

(٢)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا}.(الإسراء: ١٤).

–قَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى– فِي تَفْسِيرِهَا:{اقْرَأْ كِتَابَكَ} قَالَ الْحَسَنُ : يَقْرَأُ الْإِنْسَانُ كِتَابَهُ أُمِّيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ أُمِّيٍّ .

{كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} أَيْ: مُحَاسِبًا . وَقَالَ بَعْضُ الصُّلَحَاءِ : هَذَا كِتَابٌ ، لِسَانُكَ قَلَمُهُ ، وَرِيقُكَ مِدَادُهُ ، وَأَعْضَاؤكَ قِرْطَاسُهُ . ، أَنْتَ كُنْتَ الْمُمْلِي عَلَى حَفَظَتِكَ ، مَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ ، وَمَتَى أَنْكَرْتَ مِنْهُ شَيْئًا يَكُونُ فِيهِ الشَّاهِدُ مِنْكَ عَلَيْكَ} .

(٣)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا}.(الإسراء:٣٦).

–قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى– فِي تَفْسِيرِهَا:{أَيْ: وَلَا تَتَّبِعِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، بَلْ تَثَبَّتْ فِي كُلِّ مَا تَقُولُهُ وَتَفْعَلُهُ، فَلَا تَظُنّ ذَلِكَ يَذْهَبُ لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } فَحَقِيقٌ بِالْعَبْدِ الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا قَالَهُ وَفَعَلَهُ وَعَمَّا اسْتَعْمَلَ بِهِ جَوَارِحَهُ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ لِعِبَادَتِهِ أَنْ يُعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا،وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْتِعْمَالِهَا بِعُبُودِيَّةِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَكَفِّهَا عَمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ تَعَالَى}.

(٤)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ}. (الحشر:١٨).

-قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي تَفْسِيرِهَا:{يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُوجِبُهُ الْإِيمَانُ وَيَقْتَضِيهِ مِنْ لُزُومِ تَقْوَاهُ،سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ،وَأَنْ يُرَاعُوا مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ أوَامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ، وَيَنْظُرُوا مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَمَاذَا حَصَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ أوْ تَضُرُّهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا جَعَلُوا الْآخِرَةَ نُصْبَ أعْيُنِهِمْ وَقِبْلَةَ قُلُوبِهِمْ، وَاهْتَمُّوا بِالْمُقَامِ بِهَا، اجْتَهَدُوا فِي كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهَا، وَتَصْفِيَتِهَا مِنَ الْقَوَاطِعِ وَالْعَوَائِقِ الَّتِي تُوقِفُهُمْ عَنِ السَّيْرِ أَوْ تَعُوقُهُمْ أوْ تَصْرِفُهُمْ، وَإِذَا عَلِمُوا أيْضًا، أنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أعْمَالُهُمْ، وَلَا تَضِيعُ لَدَيْهِ وَلَا يُهْمِلُهَا، أوْجَبَ لَهُمُ الْجِدَّ وَالاجْتِهَادَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أصْلٌ فِي مُحَاسَبَةِ الْعَبْدِ نَفْسه، وَأنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَتَفَقَّدَهَا، فَإِنْ رَأى زَلَلًا تَدَارَكَهُ بِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ، وَالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ، وَإِنْ رَأى نَفْسَهُ مُقَصِّرًا فِي أمْرٍ مِنْ أوَامِرِ اللهِ، بَذَلَ جُهْدَهُ وَاسْتَعَانَ بِرَبِّهِ فِي تَكْمِيلِهِ وَتَتْمِيمِهِ، وَإِتْقَانِهِ، وَيُقَايِسُ بَيْنَ مِنَنِ اللهِ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِهِ وَبَيْنَ تَقْصِيرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَهُ الْحَيَاءَ بِلَا مَحَالَةٍ}.

(٥)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ(٤٠)فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ}.(النَّازعات:٤٠-٤١).

-قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي تَفْسِيرِهَا:{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ } أيْ: خَافَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ وَمُجَازَاتَهُ بِالْعَدْلِ، فَأَثَّرَ هَذَا الْخَوْفُ فِي قَلْبِهِ فَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا الَّذِي يُقَيِّدُهَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَصَارَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَجَاهَدَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةَ الصَّادَّيْنِ عَنِ الْخَيْرِ.

-{ فَإِنَّ الْجَنَّةَ } الْمُشْتَمِلَة عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَسُرُورٍ وَنَعِيمٍ { هِيَ الْمَأْوَى } لِمَنْ هَذَا وَصْفُهُ.





•ثَالِثًا:مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ فِي السُّنَّةِ:

-وَرَدَتْ أحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ فِي بَيَانِ فَضْلِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ أذْكُرُ مِنْهَا:

(١)مَا أخْرَجَهُ الْإمَامُ مُسْلِمٌ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ

(٢٩٦٩)مِنْ حَدِيثِ أنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-قَالَ:كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَضَحِكَ،فَقَالَ:{هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا؛ فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ}.

-يَوْمُ الْقِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ للعِبَادِ عَلَى أعْمَالِهِمْ، فَيُقِيمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِيزَانَ الْعَدْلِ؛ فَلَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أحَدٌ، وَمِنْ مَظَاهِرِ عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ: إنْطَاقُ جَوَارِحِ وَأعْضَاءِ الْإِنْسَانِ لِتَكُونَ شُهُودًا عَلَيْهِ.

-وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَضَحِكَ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ:{هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا أَضْحَكُ؟}،وَكَأنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اطَّلَعَ عَلَى أمْرٍ مِنَ الْوَحْيِ، فَأَحَبَّ أنْ يُعْلِمَهُ أصْحَابَهُ، فَقَالَ الصَّحَابَةُ:{اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ} وَهَذَا مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ مَعَ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ حَتَّى يَعْلَمُوا السَّبَبَ وَالْمَوْعِظَةَ الَّتِي عِنْدَ النَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَذْكُرَهَا لَهُمْ.

-ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-سَبَبَ ذَلِكَ فَقَالَ:{مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ} يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ:{يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟} أيْ: تُؤَمِّنِّي مِنْ أنْ تَظْلِمَنِي، فَيَقُولُ اللهُ فِي جَوَابِ الْعَبْدِ: بَلَى، فَيَقُولُ الْعَبْدُ:{فَإِنِّي} أيْ: فَإذَا أَجَرْتَنِي مِنَ الظُّلْمِ فَإِنِّي لَا أُجَوِّزُ وَلَا أَقْبَلُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، يَشْهَدُ عَلَى صِدْقِ قَوْلِي وَصَلَاحِي وَحُسْنِ طَاعَتِي؛ وَذَلِكَ عِنْدَمَا يُحَاسِبُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَسْأَلُهُ عَنْ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا، وَكَأنَّ الرَّجُلَ أرَادَ بِالشَّاهِدِ أقَارِبَهُ وَمَنْ كَانُوا يَرَوْنَهُ فِي الدُّنْيَا يَأْتِي تِلْكَ الْأَعْمَالَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى:{كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا}، أيْ: إذَا أَرَدْتَ شُهُودًا، فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْكَ هُوَ أعْضَاءُ جَسَدِكَ؛ فَهُمْ مَنْ كَانُوا يَحْضُرُونَكَ وَقْتَ بُعْدِكَ عَنْ أَعْيُنِ مَنْ تُظْهِرُ لَهُمْ أعْمَالَ الطَّاعَةِ، وَتُسِرُّ عَنْهُمْ أعْمَالَ الْمُنْكَرِ وَالْمَعَاصِي، وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنَ الشُّهُودِ عَلَيْكَ:{الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ}، كَمَا جَاءَ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠)كِرَامًا كَاتِبِينَ(١١)يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}. (الانفطار: ١٠-١٢)، وَالْمُرَادُ بِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَيَكْتُبُونَ عَلَى النَّاسِ أعْمَالَهُمْ فِي صُحُفِ الْأَعْمَالِ شُهُودًا؛ وَهَذَا تَأْكِيدٌ وَتَقْرِيرٌ وَاسْتِجَابَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَطْلُوبِهِ، فَيُخْتَمُ عَلَى فَمِهِ،فَيُقَالُ لأَعْضَائِهِ: انْطِقِي،فَتَنْطِقُ الْأَرْكَانُ بِأَعْمَالِهِ وَأَفْعَالِهِ الَّتِي بَاشَرَهَا وَارْتَكَبَهَا، ثُمَّ يُتْرَكُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيُرْفَعُ الْخَتْمُ

مِنْ فَمِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِالْكَلَامِ الْآدَمِيِّ الْمُعْتَادِ، فَيَقُولُ لأعْضَائِهِ الَّتِي شَهِدَتْ عَلَيْهِ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، أيْ هَلَاكًا لَكُنَّ،{فعَنْكُنَّ} أيْ: لأَجْلِ خَلَاصِكُنَّ، كُنْتُ أُنَاضِلُ وَأُدَافِعُ وَأُجَادِلُ؛ وَهَذَا حَالُ الْمُنَافِقِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ يَقُولُ:{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ؛ وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ}،وَالْحَدِيثُ أصْلٌ فِي ضَرُورَةِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَصِدْقِ الْمُرَاقَبَةِ.

-وَفِي الْحَدِيثِ: إظْهَارُ اللهِ سُبْحَانَهُ عَدْلَهُ لِعِبَادِهِ.

-وَفِيهِ:بَيَانُ حِسَابِ اللهِ للعَبْدِ وَوُقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

-وَفِيهِ: بَيَانُ شَهَادَةِ الْأَعْضَاءِ وَنُطْقِهَا بِمَا فَعَلَ صَاحِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا يُوجِبُ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أنْ تُحَاسَبَ.

(٢)وَمَا أخْرَجَهُ الْإمَامُ التِّرْمِذِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي سُنَنِهِ بِرَقَمِ(٢٤١٧)وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْألْبَانِيُّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-فِي صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ بِرَقَمِ(٢٤١٧)مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأسْلَمِيِّ نَضْلَةَ بْنِ عُبَيْدٍ-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ؛ فِيمَ أفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ؛ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ؟ وَعَنْ مَالِهِ؛ مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ؛ فِيمَ أبْلَاهُ؟}.

-بَيَّنَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أنَّ لِكُلِّ عَبْدٍ وَقْفَةً بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَسْألُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ شَيءٍ؛ وَذَلِكَ حَثًّا مِنْهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الاسْتِعْدَادِ لِهَذَا الْمَوْقِفِ، وَإعْدَادِ الْجَوَابِ لَهُ وَذَلِكَ بِلُزُومِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَصِدْقِ الْمُرَاقَبَةِ.

-وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:{لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وَالْمَعْنَى: لَا تَتَحَرَّكُ وَتَنْصَرِفُ قَدَمُ كُلِّ إنْسَانٍ مِنْ مَوْضِعِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْألَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِدَّةِ أشْيَاءَ: {حَتَّى يُسْألَ عَنْ عُمُرِهِ؛ فِيمَ أفْنَاهُ؟} عَنْ حَيَاتِهِ وَزَمَانِهِ الَّذِي

عَاشَهُ، مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟ وَكَيْفَ اسْتَغَلَّ أَوْقَاتَهُ؟ {وَعَنْ عِلْمِهِ؛ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ؟} وَيَسْأَلُهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِلْمِهِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ، مَاذَا فَعَلَ بِهَذَا الْعِلْمِ؟ هَلْ تَعَلَّمَهُ لِوَجهِ اللهِ خَالِصًا أَمْ رِيَاءً وَسُمْعَةً؟ وَهَلْ عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ أَمْ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ؟ {وَعَنْ مالِهِ؛مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟} وَيَسْأَلُهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَمْوَالِهِ الَّتِي جَمَعَهَا، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهَا؟ أَفِي طَاعَةٍ أَمْ فِي مَعْصِيةٍ؟ {وَعَنْ جِسْمِهِ} وَالْمُرَادُ بِهِ الصِّحَّةُ؛{فِيمَ أَبْلَاهُ}، وَعَنْ قُوَّتِهِ مَاذَا فَعَلَ بِهَا؟ وَفِيمَ أَضَاعَ شَبَابَهُ وَصِحَّتَهُ؟وَهَذَا إِرْشَادٌ مِنَ النَّبِيِّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِأُمَّتِهِ إِلَى اغْتِنَامِ الْفُرَصِ فِي الْحَيَاةِ؛ لِلعَمَلِ لِلآخِرَةِ بِمَلْءِ الْأَوْقَاتِ بِالطَّاعَاتِ؛لِأَنَّهَا هِيَ عُمُرُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا، وَذَخِيرَتُهُ فِي الْآخِرَةِ.

–وَفِي الْحَدِيثِ: بَيَانُ أَنَّ لِكُلِّ عَبْدٍ وَقْفَةً لِلحِسَابِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى،فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ وَأَنْ يَزِنَ أَعْمَالَهُ قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ عَلَيْهِ.

–وَفِيهِ:بَيَانُ صِفَةِ سُؤَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.



•رَابِعًا:لُزُومُ الْمُحَاسَبَةِ وَصِدْقِ الْمُرَاقَبَةِ:

–اعْلَمْ يَا طَالِبَ النَّجَاةِ أَنَّ نَفْسَكَ هِيَ أَعْدَى أَعْدَائِكَ،وَقَدْ خُلِقَتْ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ،مَيَّالَةً إِلَى الشُّرُورِ،وَقَدْ أُمِرْتَ بِتَقْوِيمِهَا وَتَزْكِيَتِهَا،

وَأَنْ تَقُودَهَا بِسَلَاسِلِ الْخُضُوعِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهَا، لِذَا وَجَبَ عَلَيْكَ لُزُومُ الْمُحَاسَبَةِ وَصِدْقُ الْمُرَاقَبَةِ،وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ فِيمَا قَالَهُ ابْنُ قُدَامَةَ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى– فِي كِتَابِهِ :"مُخْتَصَرِ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ" ص:٣٧٠:{وَتَحَقَّقَ أَرْبَابُ الْبَصَائِرِ أَنَّهُ لَا يُنْجِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَخْطَارِ –النَّاتِجَة عَنْ عَدَمِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ–إِلَّا لُزُومُ الْمُحَاسَبَةِ لِأَنْفُسِهِمْ وَصِدْقُ الْمُرَاقَبَةِ ، فَمَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا خَفَّ حِسَابُهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَنْ أَهْمَلَ الْمُحَاسَبَةَ دَامَتْ حَسَرَاتُهُ ، فَلَمَّا

عَلِمُوا أنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ إلَّا الطَّاعَةُ ، وَقَدْ أمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ وَالْمُرَابَطَةِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:{يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُوا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُوا}

فَرَابَطُوا أنْفُسَهُمْ أوَّلًا بِالْمُشَارَطَةِ ثُمَّ بِالْمُرَاقَبَةِ ، ثُمَّ بِالْمُحَاسَبَةِ ثُمَّ بِالْمُعَاقَبَةِ ، ثُمَّ بِالْمُجَاهَدَةِ ثُمَّ بِالْمُعَاتَبَةِ ، فَكَانَتْ لَهُمْ فِي الْمُرَابَطَةِ سِتُّ مَقَامَاتٍ أصْلُهَا الْمُحَاسَبَةُ ، وَلَكِنْ كُلّ حِسَابٍ يَكُونُ بَعْدَ مُشَارَطَةٍ وَمُرَاقَبَةٍ ، وَيَتْبَعُهُ عَنْدَ الْخُسْرَانِ الْمُعَاتَبَةُ وَالْمُعَاقَبَةُ . نَأخُذُهَا الْآنَ بِشَيءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ :

-الْمَقَامُ الْأوَّلُ : الْمُشَارَطَةُ :

-اعْلَمْ أنَّ التَّاجِرَ كَمَا يَسْتَعِينُ بِشَرِيكِهِ فِي التِّجَارَةِ طَلَبًا للرِّبْحِ ، وَيُشَارِطُهُ وَيُحَاسِبُهُ ، كَذَلِكَ الْعَقْلُ يَحْتَاجُ إلَى مُشَارَكَةِ النَّفْسِ وَشَرْطِ الشُّرُوطِ عَلَيْهَا وَإرْشَادِهَا إلَى طَرِيقِ الْفَلَاحِ ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا . فَمَثَلًا : إذَا فَرِغَ الْعَبْدُ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، يَنْبَغِي أنْ يُفْرِغَ قَلْبَهُ سَاعَةً لِمُشَارَطَةِ نَفْسِهِ فَيَقُولُ للنَّفْسِ : مَالِيَ بِضَاعَة إلَّا الْعُمُر ، فَإذَا فَنِيَ مِنّي رَأسُ الْمَالِ وَقَعَ الْيَأسُ مِنَ التِجَارَةِ وَطَلَبِ الرِّبْحِ .فَلْيَقُلْ أحَدُنَا الْآنَ قَبْلَ الْمَوْتِ : يَا نَفْسُ ، اجْتَهِدِي الْيَوْمَ فِي أنْ تَعْمُرِي خِزَانَتَكِ وَلَا تَدَعِيهَا فَارِغَةً ، وَلَا تَمِيلِي إلَى الْيَأسِ وَالدَّعَةِ وَالاسْتِرَاحَةِ فَيَفُوتُكِ مِنْ دَرَجَاتِ عِلِّيينَ مَا يُدْرِكُهُ غَيْرُكِ.

-الْمَقَامُ الثَّانِي : الْمُرَاقَبَةُ :

-إذَا أوْصَى الْإنْسَانُ نَفْسَهُ وَشَرَطَ عَلَيْهَا ،لَمْ يَبْقَ إلَّا الْمُرَاقَبَةُ لَهَا وَمُلَاحَظَتُهَا وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي تَفْسِيرِ الْإحْسَانِ ، لِمَّا سُئِلَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –قَالَ:{ أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ}.فَمُرَاقَبَةُ الْعَبْد نَفْسَهُ فِي الطَّاعَةِ هُوَ أنْ يَكُونَ مُخْلِصًا فِيهَا ، وَمُرَاقَبَتُهُ فِي الْمَعْصِيَةِ تَكُونُ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالْإقْلَاعِ

، وَمُرَاقَبَتُهُ فِي الْمُبَاحِ تَكُونُ بِمُرَاعَاةِ الْأَدَبِ وَالشُّكْرِ عَلَى النَّعِيمِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ الْمُرَاقَبَةِ .

–الْمَقَامُ الثَّالِثُ : الْمُحَاسَبَةُ بَعْدَ الْعَمَلِ :

–اعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقْتٌ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ يُشارطُ فِيهِ نَفْسَهُ ، كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ سَاعَةٌ يُطَالِبُ فِيهَا نَفْسَهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ وَيُحَاسِبُهَا عَلَى جَمِيعِ مَا كَانَ مِنْهَا ، كَمَا يَفْعَلُ التُجّارُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الشُرَكَاءِ فِي آخِرِ كُلّ سَنَةٍ أَوْ شَهْرٍ أَوْ يَوْمٍ .

–الْمَقَامُ الرَّابِعُ : مَعَاقَبَةُ النَّفْسِ عَلَى تَقْصِيرِهَا :

–اعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا حَاسَبَ نَفْسَهُ فَرَأَى مِنْهَا تَقْصِيرًا،أَوْ فَعَلَتْ شَيْئًا مِنَ الْمَعَاصِي ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُهْمِلَهَا ، فَإِنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مُقَارَفَةُ الذُّنُوبِ وَيَعْسُرُ عَلَيْهِ فِطَامُهَا ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُعَاقِبَهَا عُقُوبَةً مُبَاحَةً ، كَمَا يُعَاقِبُ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ . وَكَمَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–:أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى حَائِطٍ لَهُ ثُمَّ رَجَعَ وَقَدْ صَلَّى النَّاسُ الْعَصْرَ ، فَقَالَ :{إِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَى حَائِطِي وَرَجَعْتُ وَقَدْ صَلَّى النَّاسُ الْعَصْرَ ، حَائِطِي صَدَقَةٌ عَلَى الْمَسَاكِينِ} .

–الْمَقَامُ الْخَامِسُ : الْمُجَاهَدَةُ :

–إِذَا حَاسَبَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ،فَيَنْبَغِي إِذَا رَآهَا قَدْ قَارَفَتْ مَعْصِيَةً أَنْ يُعَاقِبَهَا كَمَا سَبَقَ ، فَإِنْ رَآهَا تَتَوَانَى للكَسَلِ فِي شَيءٍ مِنَ الْفَضَائِلِ أَوْ وِرْدٍ مِنَ الْأَوْرَادِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُؤَدِّبَهَا بِتَثْقِيلِ الْأَوْرَادِ عَلَيْهَا ، كَمَا وَرَدَ عَنِ ابنِ عُمَرَ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–،أَنَّهُ إِذَا فَاتَتْهُ صَلَاةٌ فِي جَمَاعَةٍ فَأَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ تِلْكَ اللَّيْلَة ، فَهُوَ هُنَا يُجَاهِدُهَا وَيُكْرِهُهَا مَا اسْتَطَاعَ .

–الْمَقَامُ السَّادِسُ وَالْأَخِيرُ : مَعَاتَبَةُ النَّفْسِ وَتَوْبِيخُهَا :

–قَالَ أَنَسٌ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–:سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ–رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–،وَقَدْ دَخَلَ حَائِطًا ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ،يَقُولُ:{عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرُ الْمُؤمِنِينَ !! بخٍ بَخٍ ، وَاللهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ !} .

•خَامِسًا:السَّلَفُ الصَّالِحُ وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ:

-وَإلَيْكَ نَمَاذِجُ مُضِيئَةٌ للسَّلَفِ الصَّالِحِ فِي بَابِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ:

(١)جَاءَ فِي"مَنَاقِبِ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-لابْنِ الْجَوْزِيّ":{جَاءَ رَجُلٌ يَشْكُو إِلَى عُمَرَ وَهُوَ مَشْغُولٌ فَقَالَ لَهُ :{ أَتَتْرُكُونَ الْخَلِيفَةَ حِينَ يَكُونُ فَارِغًا حَتَّى إذَا شُغِلَ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ أَتَيْتُمُوهُ ؟} وَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، فَانْصَرَفَ الرَّجُلُ حَزِينًا ، فَتَذَكَّرَ عُمَرُ أَنَّهُ ظَلَمَهُ ، فَدَعَا بِهِ وَأَعْطَاهُ الدِّرَّةَ،وَقَالَ لَهُ:اضْرِبْنِي كَمَا ضَرَبْتُكَ فَأَبَى الرَّجُلُ وَقَالَ : تَرَكْتُ حَقِّي للهِ وَلَكَ ، فَقَالَ عُمَرُ:إِمَّا أَنْ تَتْرُكَهُ للهِ فَقَط، وَإِمَّا أَنْ تَأْخُذَ حَقَّكَ فَقَالَ الرَّجُلُ:

تَرَكْتُهُ للهِ فَانْصَرَفَ عُمَرُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ:يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، كُنْتَ وَضِيعًا فَرَفَعَكَ اللهُ، وَضَالًّا فَهَدَاكَ اللهُ، وَضَعِيفًا فَأَعَزَّكَ اللهُ، وَجَعَلَكَ خَلِيفَةً فَأَتَي رَجُلٌ يَسْتَعِينُ بِكَ عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ فَظَلَمْتَهُ ؟!! مَا تَقُولُ لِرَبِّكَ غَدًا إِذَا أَتَيْتَهُ ؟وَظَلَّ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ حَتَّى أَشْفَقَ النَّاسُ عَلَيْهِ}.

(٢)وَجَاءَ فِي كِتَابِ"الزُّهْد"للإِمَامِ أَحْمَدَ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيَّ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-قَالَ : {مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ آكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأُعَانِقُ أَبْكَارَهَا، ثُمَّ مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ آكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، وَأُعَالِجُ سَلَاسِلَهَا وَأَغْلَالَهَا، قُلْتُ لِنَفْسِي : يَا نَفْسُ، أَيّ شَيءٍ تُرِيدِين ؟ فَقَالَتْ : أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَعْمَلُ صَالِحًا ! قُلْتُ : فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَةِ فَاعْمَلِي}.

(٣)وَجَاءَ فِي"سِيَرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ"لِلذَّهَبِيّ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْد الْعَزِيز-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-كَانَ شَدِيدَ الْمُحَاسَبَةِ لِنَفْسِهِ قَلِيلَ الْكَلَامِ، وَكَانَ يَقُولُ : {إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ مَخَافَةُ الْمُبَاهَاةِ}.

•فَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ طَرِيقَةُ الْمُؤمِنِينَ، وَسِمَةُ الْمُوَحِّدِينَ، وَعُنْوَانُ الْخَاشِعِينَ،فَالْمُؤمِنُ مُتَّقٍ لِرَبِّه، مُحَاسِبٌ لِنَفْسِهِ، مُسْتَغْفِرٌ لِذَنْبِهِ، يَعْلَمُ أنَّ النَّفْسَ خَطرُهَا عَظِيمٌ، وَدَاؤهَا وَخِيمٌ، وَمَكْرُهَا كَبِيرٌ، وَشَرُّهَا مُسْتَطِيرٌ ، فَهِيَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، مَيَّالَةٌ إِلَى الْهَوَى،دَاعِيَةٌ إِلَى الْجَهْلِ،قَائِدَةٌ إِلَى الْهَلَاكِ، تَوَّاقَةٌ إِلَى اللَّهْوِ، إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي.

•فَلَا تُتْرَكُ النَّفْسَ لِهَوَاهَا؛ لأنَّهَا دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ، مَنْ أطَاعَهَا قَادَتْهُ إِلَى الْقَبَائحِ، وَدَعَتْهُ إِلَى الرَّذَائِلِ، وَخَاضَتْ بِهِ الْمَكَارِهِ؛

وَمَنْ حَاسَبَهَا وَلَجَّمَهَا بِلِجَامِ الشَّرْعِ اسْتَقَامَتْ عَلَى أمْرِ اللَّهِ،فَكَثُرَ خَيْرُهَا،وَكَانَتْ سَبَبًا فِي حِفْظِ الْبِلَادِ وَرُقِيِّهَا.

•فَاللَّهُمَّ آتِ نُفُوسَنَا تَقْوَاهَا،وَزَكِّهَا أنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا،أنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا،ألْهِمْنَا رُشْدَنَا، وَقِنَا شَرَّ نُفُوسِنَا،وَآخِرُ دَعْوَانَا أنِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

https://www.facebook.com/profile.php?id=100064009272766

صفحة الموسوعة في انستغرام

https://www.instagram.com/aaraf_dinak_encyclopedia_/?fbclid=IwAR0sBkqAS72qQjjiG9XnERN59UPA73Az9KuLc6OWJFQNpKhmzSfhrEEyN_I

صفحة الموسوعة في تليجرام

https://t.me/KNOWYOURRELIGIONSAYED